

قاسم أمين

من غيروا حياتنا

أهم ما يعرفه المعاصرون عن قاسم أمين أنه صاحب دعوة تحرير المرأة . ونحن كلما تذكرنا تطور المرأة المصرية المعاصرة . ذكرنا اسم هذا المصرى العظيم المقدم ، وقد نذكر معه اسم صديقه الجليل الإمام محمد عبده الذى وقفت ضده قوى الرجعية لأنه استقبل امرأة فرنسية سافرة فى أحد أروقة الأزهر الشريف .

ولم تكن مشكلة المرأة هى المشكلة الوحيدة التى عانى منها المجتمع المصرى فى عصر قاسم أمين ، فقد تعرضت مصر كلها لحملة شرسة بعد سقوط الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢ ، ووجهت إلى المصريين اتهامات كثيرة ، كان الهدف منها إضعاف روحهم المعنوية ، وإخضاعهم لسيطرة الاحتلال .

وكان قاسم أمين يعرف حقائق المناقشة التاريخية الكبرى التى دارت فى باريس خلال شهر مارس ١٨٨٣ بين جمال الدين الأفغانى وبين المفكر الفرنسى أرنست رينان الذى كان يعمل فى ذلك الوقت مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية .

لقد ادعى رينان أن الإسلام سبب تخلف الشرق ، فتصدى له الأفغانى وأفحمه ، حتى اضطر المفكر الفرنسى إلى الاعتراف بجمال الدين ، وقال إنه رأى فيه مثيلاً لابن رشد . ولكن الحملة لم تتوقف . ولكنها بدأت تتجه إلى مصر التى وقعت فى برائن الاحتلال ، باعتبارها عصب العالم الشرقى والإسلامى ، والقادرة على مواجهة الغزو فى كل عصر . فهى التى ردت الغزو التتارى والغزو الصليبي ، وهى التى ردت حملة بونابرت عن الشرق ، وهى التى كسرت جيش فريرز البريطانى فى حوارى رشيد .

وكان الذى تزعم الحملة الجديدة ضد المصريين رجل فرنسى اسمه (الدوق هاركور) أحد قضاة المحاكم المحتلطة . وقد أصدر كتابا كان استمراراً لحملة منظمة ضد مصر التى اتجهت نحو أوروبا تطلب منها العون فى قضيتها ضد بريطانيا ، فالتحذت بريطانيا من أجهزة الإعلام المعروفة فى ذلك الوقت سلاحاً تحارب به المصريين وترميمهم بالتهم الباطلة ، حتى تنبذ قضية الجلاء

وسط الزواجع المثارة على صفحات الجرائد أو الكتب .

ولكن بعض أحرار الفرنسيين تصدوا للحملة البريطانية ، ومنهم المسيو بوكار الذى أصدر كتاباً تحت عنوان (حورس) دفاعاً عن عراق مصر وحضارتها ، وجعل شعاره (جلاء - استقلال - حياذ) .

حدث ذلك عام ١٨٩٤ ، وهو من الأعوام الخطيرة فى حياة مصر ، فقد وقع خلاله حادثان خطيران ، أولهما حادث الحدود الشهر ، عندما كان عباس حلمى الخديوى يستعرض القوات المصرية فى الصعيد ، وحين وصل إلى وادى حلفا أبدى ملاحظة على حالة الجند ، وقال على ملأ فى الناس :

- إن هؤلاء الجنود فى حالة تدعو إلى الخجل .

وثار لورد كتشنز باشا سردار الجيش المصرى . وغضب لورد كرومر المعتمد البريطانى فى القاهرة ، وطلب من عباس أن يقدم اعتذاراً قبل عودته إلى العاصمة . وفى محطة الفيوم فى يوم ٢٦ يناير ١٨٩٤ كتب الخديوى بريقة الاعتذار وأرسلها إلى كتشنز .

أما الحادث الثانى فكان قضية الأنجار فى الرقيق ، فقد ضبط على شريف باشا رئيس مجلس شورى القوانين ، ومحمد الشواربى باشا ، والدكتور عبد الحميد الشافعى وحسين واصف باشا ، عندما اشتروا عدداً من الرقيق ؛ وألقى القبض عليهم فيما عدا الشواربى الذى فر إلى قليوب . ثم ادعى شريف باشا أنه من رعاية إيطاليا وحضر القنصل الإيطالى وأفرج عنه . وعقدت محكمة عسكرية لمحاكمة المتهمين ، وأصدرت ضدهم احكاماً بالحبس لمدد متفاوتة ، ثم صدر عنهم عفو بعد ذلك . ولكن الحادثة سببت ثورة شديدة فى رأى العام المصرى ، وكان لها صدى فى رأى العام الأوربى .

فى هذا الجو المثير أصدر (الدوق هاركور) كتابه عن المصريين فتصدى له قاسم أمين ، بإصدار كتاباً تحت عنوان (المصريون) . وكان ذلك فى عام ١٨٩٤ .

وهذا الكتاب لم يلتفت إليه الدارسون لقاسم أمين ، رغم أهميته الكبرى فى بيان وجهات نظر هذا المفكر المصرى الذى رأى من واجبه أن يبين حقيقة شعبه فى جرأة نادرة ، فقط أصدر كتابه باللغة الفرنسية ، وكتب على غلافه أنه من تأليف قاسم أمين المستشار بمحكمة استئناف القاهرة ، وبذلك تحمل وحده مسئولية كل حرف فى كتابه .

وحين نستعرض هذا الكتاب النادر الذى صور المصريين على حقيقتهم فى تلك الفترة ،

سنجد أنفسنا مضطرين إلى الوقوف عند قضايا أساسية تعرض لها قاسم أمين ، وستترك بعض القضايا التي حلها الزمن ولم يعد لها وجود في المجتمع المصرى اليوم .

وأحب أن أقول للقارئ إننى سأترك عامداً الفصول التي كتبها قاسم أمين عن المصرى وعن المجتمع المصرى فقد تعمد (الدوق هاركور) أن يتحدث عن المسلمين والأقباط وردده قاسم أمين إلى صوابه ، وكانت هذه إحدى الأعيب الاستعمار البريطانى في مصر عندما أراد تفريق عنصرى الأمة حتى يفتت وحدتها .

وستترك أيضاً الفصل الذى كتبه المؤلف عن (الرق) رغم طرافته فقد انتهت هذه القضية من مجتمعا ، وقد أثرت في ذلك الوقت بصورة تلفت النظر .

ولابد لنا من اجتياز الفصول التي كتبها قاسم أمين عن المرأة وعن الطلاق وعن الحب وعن الدين لأن مجتمعا اجتاز خلال تطوره كل العقد التي كانت متحكمة في تصرفات الناس تحت ضغط الجمود الفكرى المتمتت الذى لفت نظر الرجل الأوربى ورأى في العلاقات الشخصية بين الرجل والمرأة ما يبين مظاهر الحضارة الأوربية ، فحاول أن يرد ذلك إلى الدين ، ولم يدرك أن الإسلام لم يحكم على المرأة بالاستعباد ، ولم يبيح للرجل حرية الطلاق إلا بشروط هي أفضل على كل حال من القيود التي يلتزم بها الأوربى ثم يبيع لنفسه تعدد النساء بطرق غير مشروعة .

لقد رفع الحجاب عن المرأة المصرية . وأصبح الزواج في بلادنا غير مقيد بالقيود الاجتماعية التي كانت سائدة في العصر الذى كتب فيه (الدوق هاركور) وغيره من الأوربيين اعتراضاتهم على النظام الشرقى في تعرف الفتي بالفتاة واقترانها أو طلاقها .

وهذه الفصول ليست جديدة في فكرة قاسم أمين ، بل هي امتداد لأفكاره عن تحرير المرأة مما يعرفه بجمهرة الناس .

ولذلك فإننى أوثر الحديث عن الجديد في فكر قاسم أمين من ناحية بناء المجتمع المصرى وتركيبه .

وأول لمحة تلفت النظر هي حديث قاسم أمين عن الروح العسكرية عند المصريين ، فقد اتهمهم (الدوق هاركور) بأنهم لم يمارسوا الحرب أجيالاً طويلة ، وأنهم فقدوا الخصائص العسكرية .

وتصدى له قاسم أمين فتحدث عن حملة بونابرت وهزيمة جيش المالك أمام جيشه ،

وتساءل : من الذى وقف ضد الغزو الفرنسى ؟ وقال فى ألفاظ شاعرية ، إن حب الوطن دفع المصريين دفعاً إلى محاربة جيش بوناپرت حتى أرغم على الخروج من مصر .
 ثم تحدث عن جيش الفلاحين فى عصر محمد على ، وكيف استولى على غزة ويافا وعكا ودمشق ووصل إلى قونية ، حتى وقعت موقعة (نزيب) التى تعتبر صفحة ناصعة من صفحات الجيش المصرى الذى هزم الجيش التركى . وأصبحت قوات مصر على أبواب قسطنطينية .
 ووقف قاسم أمين عند كلمة قالها (الدوق هاركور) عن جيش عرابى حين وصفه بأنه لم يكن جادا فى الحرب مما سهل انتصار الجيش البريطانى عليه فى موقعة التل الكبير .
 ورد قاسم أمين على الدوق قائلاً إن العالم كله يعلم - فيما عدا الدوق هاركور - أن أسباب هزيمة الجيش العرابى كانت بسبب انقسام رؤساء الجند إلى طائفتين إحداهما تمنح الولاء لعرابى والأخرى تمنح الولاء للخديوى توفيق . ثم صدر بعد ذلك إعلان من السلطان العثمانى باعتبار عرابى من العصاة .

ثم قال قاسم أمين :

« فلنترك عرابى وجنوده ، ولنجب على سؤال أهم وأعلى قيمة .

هل كان الجنود الذين حاربوا فى عصر محمد على تنقصهم الكفاءة العسكرية ، والتعليم الحرى ، والشجاعة والبراعة ؟

وهل كان الجنود الذين حاربوا عام ١٨٧٧ تحت علم الخلافة العثمانية فى قلب روسيا تنقصهم الشجاعة والبراعة أم كانوا أكثر شجاعة من الترك أنفسهم ؟ .
 والتقط قاسم أمين من تصريحات قواد الإنجليز فى حرب استرداد السودان ما يثبت نظريته فى العسكرية المصرية ، ومن هذه التصريحات :

١ - صرح الجنرال جراهام فى ٣ مارس ١٨٨٥ أن معركة طوكر أكدت شجاعة وبراعة المصريين ، وأشاد بشجاعة البكباشى مختار .

٢ - أشاد الجنرال « ولسلى » فى ١٧ مارس ١٨٨٥ بشجاعة الفرسان المصريين ونشر

بيانه فى الجريدة العسكرية .

وقد جمع قاسم أمين عدداً من هذه التصريحات ونشر نصوصها تأكيداً لقدرة الجنود المصريين ، التى اعترف بها كبار الضباط الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر .

وفى فصل عن الحكومة التى اتهمها الدوق بالفوضى ، تحدث قاسم أمين عن وطنه فى

شجاعة نادرة ، فذكر أسباب قيام الثورة العراقية التي كانت في جوهرها مطلباً شعبياً من أجل تحقيق الحكم الديمقراطي . ويجب أن نذكر هنا أن حاكم مصر كان عباس حلمي بن توفيق الخديوي الذي تصدى له عرابي ، وصارعه من أجل حقوق الشعب .

ثم شرح المؤلف الأعمال الحضارية الضخمة التي قام بها المصريون خاصة في أعمال الري . وذكر أن مصر كانت من أوائل دول العالم التي استخدمت السكك الحديدية والتلغراف والبريد الحديث . ثم تحدث عن المحاكم المصرية التي لا تقل عن محاكم أية دولة أوربية من ناحية احترام القانون ، وسيطرة العدالة .

وذكر قاسم أمين للدوق أحوال فرنسا ، وكيف كان الملك لويس الرابع عشر يفتخر قائلاً إنه هو الدولة ، وإن ماعاناه الفلاحون الفرنسيون. في حكمه كان أشد هولاً مما عاناه الفلاحون المصريون في حكم إسماعيل ، ثم تبدل نظام الحكم في فرنسا ولم يقل أحد إن حكومة فرنسا تسودها الفوضى على الإطلاق .

وفي فصل هام عن الإسلام والتعليم رد قاسم أمين على مزاعم الدوق هاركور الذي ادعى أن الإسلام هو سبب الجمود الفكري لأن وسائله في التعليم لا تتلاءم مع العصر الحديث . وكان الدوق يظن أن نظام التعليم الإسلامي هو نظام الكتاتيب والأزهر القديم .

وقد شرح قاسم أمين اهتمام الإسلام بالتعليم ، وذكر حديث الرسول ﷺ : اطلب العلم رلو في الصين . ثم ذكر أسماء أعلام المسلمين في الدين والعلم والفلسفة والتاريخ ، وسرد أيضاً أسماء كبار الشعراء . وقال في النهاية إننا لم نبلغ في هذا العصر ما بلغته أوروبا من علم وحضارة ، ولكن يجب أن نذكر دائماً أن بلادنا كانت منبع العلم والحضارة . وأنها تحاول استرداد قيمها العظيمة في الفلسفة والعلوم والآداب .

وتعرض الدوق للأدب والعلم ، فقال إن الشككين الهامين في الأدب لا تعرفها مصر وهما الرواية والمسرحية .

وكانت هذه حقيقة من حقائق عصر قاسم أمين . وقد اعترف هو بأننا نترجم الروايات والمسرحيات من الفرنسية ، وأن الأدب العربي في مصر له أشكال تقليدية لا توجد بينها الرواية أو المسرحية .

أما العلوم كالحساب والجغرافيا والطبيعة والكيمياء وغيرها ، فقد ذكر الدوق أن المصريين لا فضل لهم فيها وأنهم يأخذونها عن الأوربيين .

والأمر العجيب الذى يلفت النظر أن قاسم أمين تخيل أن الأزهر أصبح جامعة ، بل إنه ذكر اسم الأزهر على أنه جامعة فعلا . وبنى على ذلك آماله فى أن تقوم هذه الجامعة بمثل ما تقوم به جامعات أوروبا ، وقال إن مدرسة دار العلوم تقوم بتعليم العلوم الحديثة ، وإن طلابها يؤخذون من نبهاء طلاب الأزهر لتربيتهم تربية علمية .

لقد كان قاسم أمين يتنبأ بأن الأزهر سيصبح جامعة ولعله ناقش صديقه محمد عبده فى تطوير الأزهر حتى يصبح مثل جامعة السوربون ولذلك أصر فى كتابه على إطلاق اسم الجامعة على الأزهر .

وأخيرا أحب أن أقول إن كتاب (المصريين) الذى ألفه قاسم أمين لم يكن فى الواقع ردا على الدوق هاركور بالذات ، بل كان تصورا لأفكار قاسم أمين نفسه ولو أنه اتخذ الرد على هذا الدوق وسيلة للتأليف .

لقد وضع قاسم أمين قضايا هامة تظهر حقيقة المجتمع المصرى فى عصره ، وآماله فى المستقبل ، فهو الذى سبق إلى تصوير الفلاح المصرى مسلما أو قبطيا على أنه مصرى وطنى ، وكأنما كان متنبئا بما سيسلكه الاستعمار البريطانى من محاولة لتفريق عنصرى الأمة . كما أن قاسم أمين وضع ثورة عراقى فى مكانها الصحيح من تاريخ مصر ، وأكد فى جرأة أنها ثورة شعبية ضد الظلم والطغيان .

وكان قاسم أمين كمصلح سياسى واجتماعى يحلل مجتمعه تحليلا علميا ويبين نواحي النقص فيه ، ثم يتبع ذلك بوسائل الإصلاح التى تحدث التقدم والنهضة ، وكان أهم ما يشغله فى ذلك أمرين هما : العلم والثقافة .. ثم تحرير المرأة .

ولذلك فإننى أعتقد أن هذا الكتاب الذى لم يلتفت إليه أحد أشد خطرا مما كتبه قاسم أمين عن المرأة الجديدة ، لأنه يدعو إلى تحرير المجتمع المصرى كله لا إلى تحرير نصفه فقط ممثلاً فى المرأة .

ومن أطرف ما قاله قاسم أمين عن (الدوق هاركور) الذى طعن فى مصر لأسباب سياسية ، إن الدوق رأى مصر وهو يركب عربة حنطور يتجول بها فى شوارع القاهرة .. وإن قاسم أمين لو فعل مثل ذلك فى باريس لخرج بكتاب يشبه كتاب الدوق المتفرج .

قلبي فهمي باشا

شخصية مصرية نادرة

كنت أسمع اسم (قلبي فهمي باشا) في حلوان ، وكأنه أسطورة ، فقد كان بعض أصدقائنا من الأقباط يتحدثون عنه في الأربعينات أحاديث شتى تدل على أن الرجل كانت له قيمة عظيمة ، ولم أكن أعرف عنه شيئا مع أنني سكنت بيتا مجاورا لقصره في حلوان على مقربة من الحديقة اليابانية ، وكنت أشاهد شابا وفتاة أصابها مرض نفسي ، وقيل إنهما أخ وأخت تبناهما قلبي فهمي وسمح لهما بالإقامة في قصره . وكان ينفق عليهما ، حيث لا ولد له . وكان الباشا يمضي الشتاء في حلوان ولكنه لا يقيم في قصره ، بل يسكن في غرفة بفندق (جراند أوتيل) الذي كان من الفنادق الفاخرة ، ثم خربته القوات البريطانية في الحرب العالمية الثانية عندما اتخذته مقرا لقيادتها .

وعندما كان قلبي فهمي يشقى في حلوان كانت الأحاديث تكثر حوله ، وينسج لنا أصحابنا من القبط خيوطا قصصية بعضها واقعي وبعضها خيالي ، وكانوا يزورونه كثيرا في الفندق ثم يعودون إلى المقهى الذي اعتدنا الجلوس فيه ليتحدثوا عن كرم الباشا الذي قدم لهم كذا وكذا وهم من صغار الموظفين الذين لا تسمح جيوبهم بالإفناق في هذا البذخ الذي يروي عن قلبي فهمي .

كنت في شوق إلى رؤية هذا الرجل الذي عاصر عصر إسماعيل الخديوي وكان موظفاً في دائرته السنية التي تشرف على مزارعه وأملاكه ، وطالت حياته حتى عهد الملك فؤاد وأوائل عهد فاروق .

وذات يوم قلت لصديقي برسوم أفندي الذي كان يعمل في مرصد حلوان ، ويرقب بالونات التي يطلقها المرصد في الجو ، وقد أعجب به الملك فاروق عندما رآه وسماه : صقر حلوان .

قلت لبرسوم أفندي إن قلبي فهمي باشا من الشخصيات المثيرة ، وقد قرأت مذكراته فأعجبني ، كما أعجبني الرجل بسبب مصريته الصادقة ، ونقل الأفندي كلامي للباشا في

معرض المباهاة والتفاخر ، فطلب منه دعوتى لزيارة فى جرانده أوتيل ، وذهبت معه ، فرأيت رجلاً من الأجيال الماضيه يرتدى بدلة رديجوت سوداء وحذاء لامعاً وطربوشاً مائلاً . . وكان رجلاً أنيقاً شديد الأناقة . . عليه مسحة أرستقراطية . هذا هو قلىنى فهمى باشا .

جلسنا فى الصالون ، وكان رقيقاً فى تحيته واعياً لكل كلمة يقولها مع أنه فيما يبدو كان قد بلغ التسعين من عمره أو أكثر لأننا لا نعرف تاريخ ميلاده ، ولكننا نعرف أنه كان تلميذاً فى مدرسة الأقباط الكبرى سنة ١٨٧٠ عندما تخرج فيها وحصل على شهادة البكالوريا وكان ترتيبه الثانى ، وقدم له الأمير حسين كامل بن الخديوى إسماعيل والذى أصبح سلطان مصر بعد ذلك . . قدم له هدية ثمينة هى بعض الكتب العربية والفرنساوية مازال يحتفظ بها كما قال لنا . اجتمع حول قلىنى فهمى عدد كبير من ضيوفه وقد أباح لهم أن يطلبوا من الجرسون كل ما يريدون على حسابه حتى أصبحت غرفة الصالون مطعماً ومشرباً ، وهو مسرور بهذه التحية ، سعيد لأنه يسعد أصدقاءه .

تولى قلىنى فهمى الوظائف الرفيعة فى الحكومة وكان عضواً فى مجلس شورى النواب وعضواً فى الجمعية التشريعية ومجلس الشيوخ . . ولكن هذا الجانب من حياته لا يساوى شيئاً إلى جانب شخصيته .

كما كان من كبار رجال الاقتصاد ، واقتنى ثروة طائلة ، وكان له قصر فى بلدته مغاغة ، وقصر فى حلوان . . وهذا أيضاً ليس هو ما نريد الحديث عنه ، فقد ظهر فى عصره من هم أكثر ثراءً منه ، وكانت لهم قصور وعزب وأطيان ، ونحن لا نتذكر أسماءهم لأن الزمن أنسانا أسماءهم وأطيانهم .

لقد أصبح قلىنى فهمى الكاتب بالدائرة السنية فى عهد إسماعيل والذى كان يحسب حساب المزروعات والإيجارات ، ويشرف على رى الأراضى وتخزين المحصولات شخصية مرموقة فى مصر ، وأصبحنا نحاول التعرف عليه بسبب الدور الذى قام به فى خدمة المجتمع المصرى .

تعرف قلىنى فهمى بالطبقة العليا فى المجتمع ابتداءً من الخديوى إسماعيل إلى الأمراء والباشوات ، وعاصر الثورة العربية وكان صديقاً شخصياً لسلطان باشا أكبر عملاء الاستعمار البريطانى بعد الاحتلال ، ولقب بلقب (قائمقام الخديوى توفيق) . . ولكن الذى يلفت النظر أن قلىنى فهمى باشا لم تكن له صلة بالخديوى توفيق بل إنه كان منهمكاً بمبالأة الخديوى إسماعيل

المعزول وعندما زاره في منفاه بإيطاليا وجرت بينها مقابلة في (فيلا روز) التي كان يقيم فيها إسماعيل . ثم عاد قليني فهمي إلى مصر حققت معه سلطات القصر حول هذه الزيارة ، واستجوبوه وسألوه عما قال وما سمع .

ويرغم صداقته لسلطان باشا وهو بلدياته وكلاهما من المنيا ، فإنه اعترض عليه بعد سقوط الثورة العراقية ، وقد روى أنه كان مع غيره يتناولون الغذاء على مائدة سلطان باشا في إبان سطوته واستبداده ، وجاءه رجل من المنافيين يقول :

- هناك ١٧ عمدة من عمد المنيا كانوا مع عرابي .

فقال سلطان باشا :

- يقبض عليهم حالاً ويوضعون في السجن .

فصاح قليني فهمي وهو على المائدة :

- ياسلطان باشا . . أنت ستقبض على أهل مصر كلهم لأنهم كانوا مع عرابي .

وسقطت اللقمة من فم سلطان باشا عندما سمع هذا الكلام ، وقال :

- طيب ياقليني يافهمي . . طيب .

وأمر سلطان باشا الرجل الذي حمل له هذا النبأ بالانصراف .

لم يكن قليني فهمي مشاركاً في الثورة العراقية ، ولم يكن له أى دور فيها ، بل إنه رفض أوامر مدير المنيا عندما أبلغه أن الجيش يطلب خلع قضبان السكك الحديدية ليصنع منها مدافع وأن يقطع الأشجار وترسل إلى كفر الدوار لتوقد أخشابها ويطهى عليها طعام العساكر . . وأوشك أن يوضع في السجن لمخالفته هذه الأوامر .

ولكن هذا الرجل دافع عن المصريين في وجه المظالم ، ومما عرف عنه قبل الثورة العراقية أنه طالب بإلغاء عقوبة الكرياج التي كانت تستخدم في جمع الضرائب من الفلاحين . وطالب بإلغاء السخرة التي كانت تستخدم في تنفيذ المشروعات ونجح في ذلك ، ولكن التاريخ المصري الحديث لا يذكر له شيئاً من ذلك ، مع أنه هو الذي كتب المذكرات الرسمية التي عرضت على رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا ، وبين فيها الأسباب الموجبة لذلك وهي أسباب اقتصادية وليست عاطفية ولا إنسانية مما يدل على ذكاء قليني فهمي وبراعته الفائقة في تقدير الأمور بالعقل والحكمة .

لقد ذكر لأصحاب عقوبة الكرياج في جمع الضرائب أن الكرياج لن يجمع لهم قرشاً

واحدًا ، وكان قليني فهمى يشغل وظيفة مدير مصلحة الأموال المقررة ، وظالمهم بزيارة بعض القرى المصرية ليروا أحوالها ؛ لأنها لم تكن تملك شيئًا . وشكلت لجنة لدراسة الأحوال الاقتصادية في القرى وزارت ثلاثًا منها ثم عادت وأقرت وجهة نظر قليني فهمى بعد أن شاهدت أكواخ الطين بداخلها بعض الآدميين .

وأعد قليني فهمى نفقات المشروعات التي تنفذ باستخدام السخرة ، والمشروعات التي يدفع فيها أجر الكادحين ، وأكدت دراسته أن مشروعات السخرة نفقاتها أكثر وأنها تكبد الخزانة خسائر فادحة بسبب السخرة ، حيث كان الجلادون يتقاضون الرشاوى والسرقات أضعاف ما يدفع من أجور .

هكذا كان يفكر قليني فهمى في مصر وأبناء مصر .

عقلية عملية ناضجة ، وقدرة ذهنية فائقة مع لين الجانب ، والبشاشة والكياسة . حدث أن محمد رياض باشا مدير أسبوط أصدر أمرًا بفصل موظف صغير ، وكان أبوه مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء ، وعرضت الأوراق على قليني فهمى لأن الموظف كان تابعًا لرياسته ، ورأى الظلم والجبروت في هذا القرار ، فذهب إلى رئيس الوزراء وأبلغه أن ابنه يظلم الناس ، واستمع إليه رياض باشا رئيس الوزراء وأعد خطابًا ليرسله إلى ابنه يوبخه ويحذره ، ولكن قليني فهمى باشا رجاء ألا يرسل الخطاب حتى لا يغضب الباشا مدير أسبوط وهو ولده ، فقال له رئيس الوزراء إن ابنه إذا لم يرجع عن الظلم سيفصله . وأعيد الموظف إلى عمله .

لقد كان قليني فهمى مصريًا له اتجاهات واضحة في محاولة تجديد الحياة وبعث النهضة ولذلك شارك في أعمال كثيرة لا يمكن حصرها وكانت في جملتها مشروعات اقتصادية . . ولكن بعض هذه المشروعات كانت اجتماعية أيضًا .

كانت أهم ملامح شخصية قليني فهمى إيمانه الراسخ بوحدة الشعب المصرى من مسلمين وأقباط ، وهو أول عظماء الأقباط الذين تحدثوا عن هذه الوحدة ، بل إنه كان له دور بارز في هذه الوحدة الوطنية في حياتنا المعاصرة .

يكنى أن تعلم أن قليني فهمى عندما أنشأ كنيسةً في بلدته مغاغة ، أقام مسجدًا في هذه البلدة ، وهى لفئة كريمة من هذا القبطى العظيم وقد تابعه في ذلك بعض أعيان المسلمين في مدن مصرية كثيرة فكانوا يقيمون الكنائس والمساجد تعبيرًا عن هذه الوحدة الخالدة .

قال لنا قلبي فهمي باشا عندما حدثته عن هذا الموضوع في فندق جراند أوتيل بحلوان :
 - نحن نتبادل الهدايا . . مسجد وكنيسة كلاهما هدية من الرب . . ويقول الكتاب المقدس . . الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً .
 وعندما حدثت فنتة طائفية في مصر عام ١٩١٢ كان قد أثارها الاستعمار البريطاني بين المسلمين والأقباط تدخل قلبي فهمي لوقف الفتنة ، بل إنه سافر إلى لندن لدى الحكومة البريطانية حتى تكف يدها عن الطوائف الدينية في مصر حتى لا يحترق كل شيء ، ونجح في مسعاه ، وشكره المسلمون والأقباط على السواء .
 وفي لحظة من لحظات الصفاء النفسى قرر قلبي فهمي وقف قصره في حلوان ليكون مستشفى للسيدات من جميع الأديان ورصد للمستشفى ٦٠ فدأنا ، وقال وهو يحدثنا :
 - في حلوان مسلمون وأقباط . . وهناك طوائف أخرى لا أعرفها . . ولو كنت أعرف الحقائق لسميت هذا المستشفى النسائي باسم المستشفى الإسلامى القبطى ، ولكننى خفت أن تكون هناك طوائف أخرى لا أحب أن تحرم من العلاج . . هذا حرام .
 وقد أنشأ في مغاغة مجموعة من المدارس ليتعلم فيها المسلمون والأقباط معاً ، ووقف عليها أطيافاً واسعة .

خلال حديثه الشيق كان يقول :

- مصر تعطى المسلم وتعطى القبطى ، وكلاهما يعطى مصر .
 . . هذا هو القاسم المشترك الأعظم .

ثم ضحك الباشا ، واستمر في حديثه يقول :

- عندما ذهبت لمقابلة الخديوى إسماعيل في منفاه في روما ، كنت أرتدى القبعة ، ورأيت من العيب أن أذهب إليه وعلى رأسى قبعة فبحثت عن طربوش في روما . . من أين أشتري طربوشاً في روما ؟

وقال له خبيث من إلخاضرين :

- هل صنع لك أحد الفنانين الطليان طربوشاً يساعد الباشا ؟
 فابتسم ، وقال :

- حصلت على طربوش من أحد المصريين الذين عرفتهم هناك على سبيل الاستعارة لمدة ساعة ، وكان يصطاف في إيطاليا ولا يتخلع طربوشه بسبب الصلح .

المهم في هذه الحكاية هو أن قليني فهمى رأى أنه كمصرى يقابل خديوى مصر السابق لا بد أن يكون على رأسه طربوش وليس قبعة حتى تتأكد شخصيته المصرية .
وكان قليني فهمى معجباً بالخديوى إسماعيل بسبب موقف من المواقف للخديوى كان يكثر ترديده . وقد كتب عن ذلك في مذكراته :

كانت الأمة من أقباط ومسلمين متضامنة تضامناً قومياً متيناً ، وللدلالة على مبلغ احترام ذلك الرجل العظيم (يقصد إسماعيل الخديوى) للعقائد الدينية نضرب مثلاً جديراً بالاحترام . ذلك أنه عندما أريد تنظيم شوارع مصر ، وفتح شارع كلوت بك ، أهم شوارع القاهرة في ذلك الوقت ، كان يقتضى النظام لجعل هذا الشارع قويمًا أن يمر بكنيسة الأقباط الكبرى الكائنة بدار البطيركية ، فعرض على الأنبا ديمتريوس البطيرك أن تبنى له كنيسة أفخر من هذه الكنيسة ، وكذا دار للبطيركية أفخر من دارها الحالية ، كل ذلك على نفقات الحكومة في نظير مرور الشارع معتدلاً ، فأجاب البطيرك قائلاً :

- إني أتشأم من هدم معبد ديني ليكون طريقاً ، كما أنني لا أرضى لجناب الخديوى أن يوافق على هذا العمل .

ولما عرض الأمر على الخديوى قال :

- فلتكن إرادة البطيرك ، وليبق المعبد قائماً كما هو فلا بأس من التواء الشارع في هذه الناحية .

وقد ظل قليني فهمى يتحدث عن هذا الموضوع طويلاً ، ويقول إنه لم يحدث في الدنيا أن خضعت تخطيطات المدن لمثل هذه الأقوال إلا إذا كانت الكنيسة من الآثار مثل كنيسة (نوتردام) في باريس ، ولكن كنيسة الأقباط الكبرى كانت مهلمةً وتستحق الإزالة لبناء كنيسة جديدة أعظم منها .

وقال لنا الباشا :

- لو كان الأمر بيدي لهدمت هذه الكنيسة وبنيت كنيسة أخرى عظيمة . . ولكن الخديوى إسماعيل لم يشأ أن يغضب البطيرك ديمتريوس وهذا غاية اللطف من سموه . . إن الكنيسة كانت قديمة وتستحق الهدم .

وقلنا لقليني فهمى باشا :

- لماذا ابتعدت عن الخديوى توفيق ؟

فأشار بيده ، وقال لنا في نبرات حزينة :

- الخديوي توفيق له سراى هنا في حلوان منذ كان أميراً وولياً للمهد . . . وهي الآن مدرسة حلوان الثانوية . . . وأنا أيضاً أوصيت أن يكون قصرى في مغاغة مدرسة ثانوية .
وظل قلبنى باشا يروى ذكرياته كلما أثار أحد ضيوفه قضية من القضايا التي تعيشها مصر . . .
وفجأة صاح قائلاً :

- اسمع يا برسوم أفندى . . . وأنت يا عازر أفندى . . . أنا كان لى موقف عندما أراد السلطان حسين كامل الذى ولاه الإنجليز ملك مصر زيارة مدرسة الأقباط الكبرى ، وهى داخل مبانى دار البطريركية والكنيسة المرقسية ، فقد قرر أن يكون فى استقباله يوسف باشا وهبه وحده ولا يستقبله أحد سواه من الأقباط . . . فاعترضت على ذلك .

وقال عازر أفندى :

- لماذا اعترضت يا باشا ؟

فقال قلبنى فهمى :

- يا أبنا لى . . . كان يوسف وهبه باشا معروفاً بميله للإنجليز . . . وكان السلطان قد ولاه الإنجليز . . . وأنا قلت لهم : كيف يستقبل الإنجليز أنفسهم فى بطركخانة الأقباط ؟ الإنجليز يستقبلون الإنجليز فى البطركخانة .

وحدثت أزمة بين قلبنى فهمى وبين قصر عابدين ، وتدخل فيها كثيرون منهم الأمير أحمد فؤاد الذى أصبح ملك مصر ، وحسين باشا رشدى رئيس الوزراء وغيرهما من رجال القصر ، وكانت وجهة نظر قلبنى فهمى أن زيارة السلطان لمدرسة الأقباط وهى داخل دار البطريركية يجب أن تكون رسمية ، وأن يشترك فى استقباله أعيان الأقباط حتى لا يقال إن يوسف وهبه باشا المالى لدار المندوب السامى هو الذى يمثل الأقباط . . . واقنع السلطان حسين كامل بوجهة نظره رغم عصبيته التى وصفها قلبنى فهمى فى مذكراته فقال :

- كان عصبى المزاج ، حاد الطبع ، متقلب الأحوال ، ومع سرعة تأثيره وشدة بطشه كان رحيم القلب قريباً إلى العفو .

وقال واحد من ضيوف الجلسة فى صالون فندق (جراند أوتيل) فى حلوان :

- ولكنك يا سعادة الباشا كنت مقرّباً من الإنجليز . . . ومن المندوبين الساميين فى مصر .

فضحك قدس الله روحه ، وقال :

- نعم . . ولكنني لم أكن مثل يوسف باشا وهبة الذي عينته دار المنسوب السامى البريطانى فى مصر رئيساً للوزارة ، واحتجت على هذا التعيين بطركخانة الأقباط نفسها لأنه كان قبطيا وقبل الوزارة فى ظل الحماية أثناء ثورة ١٩١٩ .

أنا كنت أدارى الإنجليز . . وقد عارضت كبراءهم فى مواقف كثيرة ولكن برفقة ولطف . . أنا ليس من طبعى العنف .

إن حياة هذا المصرى . القبلى العظيم فيها مواقف عظيمة . . ولكن أبناء جيلنا والجيل الذى سبقه كانوا يعيشون مع الأفاويل والشائعات ، ولا يعرفون الحقائق ، وعندما راجعت أعمال قلبنى فهمى ومواقفه أدركت أن التاريخ المصرى الحديث يعلوه غبار كثير . . وعلينا أن نرفع عنه الغبار .

أمين الرافي

أول مصري رفض الحماية البريطانية

أمين عبد اللطيف الرافي هو شقيق المورخ الكبير عبد الرحمن الرافي ، وكان أمين يكبر عبد الرحمن بستين ، وكان والدهما الشيخ عبد اللطيف الرافي من علماء الأزهر ، وتولى مناصب القضاء الشرعي منذ سنة ١٨٧٧ في أقاليم البحيرة والشرقية والغربية ، ثم عين عضواً في محكمة مصر الشرعية سنة ١٨٩٧ ونقياً للإسكندرية سنة ١٨٩٨ حتى أحيل إلى المعاش فعاد إلى القاهرة وتوفي بها بعد أن رأى ولديه : أمين الرافي وعبد الرحمن الرافي يصعدان سلام المجد .

وبيت الرافي من البيوت المشهورة في مصر والشام ، وهم أهل علم ، وكانوا يتولون مناصب القضاء ، ومنهم من اشتغل بالأدب والشعر ، وأشهرهم في العصر الحديث مصطفى صادق الرافي ، الذي كان والده أيضاً من القضاة ، وقد سكن في طنطا وأقام بها . ولكننا نتحدث عن أمين الرافي ، أحد الرواد الأوائل في مجال الصحافة الوطنية المصرية ، وقد كان نادرة عصره في هذا المجال ، عندما كانت الصحافة مهنة له بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فقد أراد الاحتلال إسقاط قيمة الكلمة ، فأشاع الفوضى في الصحافة المصرية حتى يضع على الشعب المصري كل القيم الرفيعة . . بل إن الاحتلال البريطاني أنشأ لنفسه صحافة في مصر وكان على رأسها جريدة (المقطم) بلسان حال الاحتلال .

ولكن مصطفى كامل أدرك الخدعة الاستعمارية فأنشأ جريدة (اللواء) مصرية وطنية ، كما أنشأ حزب الأمة جريدة (الجريدة) التي رأس تحريرها أحمد لطفى السيد تعبيراً عن رأى الأعيان المصريين أو الأرستقراطية المصرية إذا صح هذا التعبير .

ولكن . . أين كان الشعب المصري أو الجماهير ؟

لعل أمين الرافي كان هو وحده الذى يحمل آلام الجماهير ، فاحترف الصحافة لهذا الغرض ، ولتحقيق هذا الهدف ، حتى بعد وفاة الزعيم (مصطفى كامل) وعندما تولى محمد فريد (زعامة الحزب الوطنى .

كان أمين الرافعي محرراً في صحيفة الحزب الوطني ، وهي صحيفة (العلم) ثم رئيساً لتحريرها تحت زعامة (محمد فريد) بعد (مصطفى كامل) ، وكان شقيقه (عبد الرحمن الرافعي) يشتغل بالمحاماة .

ويقول عبد الرحمن الرافعي .:

(وفي سبتمبر سنة ١٩١٠ انقطعت مؤقتاً عن مكنتي ، وتوليت رئاسة تحرير (العلم) في غيبة شقيق أمين الذي سافر إلى أوروبا لحضور المؤتمر الوطني الذي انعقد في بروكسل في ذلك العام ، وموافاة (العلم) برسائل المؤتمر . وكان الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس التحرير يقضى مدة السجن المحكوم بها عليه من محكمة جنبايات مصر في قضية (وطنيتي) . وكانت إدارة (العلم) بشارع محمد علي بالمنزل رقم ١١٦) .

وكانت قضية ديوان (وطنيتي) للشيخ علي الغاياتي من القضايا المشهورة في مصر خلال تلك الفترة .

وقد حكم فيها بالسجن على الزعيم محمد فريد وعلى الشيخ الغاياتي في محاولة لإسكات صوت الوطنية .

ولكن (أمين الرافعي) استمر في إصدار جريدة (العلم) التي انتقلت دارها إلى شارع الصنافية بحى عابدين (شارع علي باشا ذو الفقار) وكانت هذه الدار مقراً للحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل ، وعقد فيها مؤتمر الحزب حيث انتخب محمد فريد خليفة للزعيم مصطفى كامل سنة ١٩١١ .

ثم أصدر أمين الرافعي جريدة الشعب ، وكانت تعتق مبادئ الحزب الوطني أيضاً ، وقامت الحرب العالمية الأولى في يوليو - أغسطس سنة ١٩١٤ ، وأعلنت السلطة العسكرية البريطانية الأحكام العرفية على مصر في ٢ نوفمبر ، ثم خلع الخديوي عباس حلمي من العرش ، وعينت بريطانيا عمه الأمير حسين كامل سلطاناً في يوم ١٩ ديسمبر ١٩١٤ . وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت الحماية على مصر في اليوم السابق لتعيين السلطان حسين كامل أي في يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

ونشر إعلان الحماية البريطانية في الوقائع المصرية ، وجاء فيه :

(يعلن وزير الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى ، أنه بالنظر إلى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعداً من

البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر . وستتخذ حكومة جلالتها كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها) .

وكان قرار الحماية البريطانية على مصر متوقعا عند الرأى العام ، وكان محتما على الصحف أن تنشره عند صدوره ؛ ولذلك أعلن أمين الرافعى رئيس تحرير جريدة (الشعب) فى عدد ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ أنه سيحتج من ذلك اليوم ، وأنه سيمود بمشيئة الله إلى الظهور . وكان الغرض الذى قصد إليه أمين الرافعى هو عدم نشر إعلان الحماية والبلاغات التى تستتبعه فى جريدته على سبيل التحدى الصامت للاحتلال البريطانى .

كان احتجاج جريدة الشعب أول احتجاج مصرى على الحماية البريطانية ، وقد جاء فى وقت كانت فيه هذه الجريدة أوسع الجرائد المصرية انتشارا ، كما كانت أكثرها نجاحا من الناحية الصحفية حيث استطاعت نقل أخبار الحرب العالمية إلى القارئ المصرى فى سرعة لفتت الأنظار ، وكانت إلى جانب هذا جريدة وطنية تناطح جرائد الغرباء أو جرائد أعوان الاستعمار .

وبعد أن أغلق أمين الرافعى جريدته بدأت مطاردة السلطة له ولزملائه أعضاء الحزب الوطنى .

يقول عبد الرحمن الرافعى :

« تولت السلطة العسكرية حكم البلاد خلال الحرب ، فكان أول عمل لها اضطهاد الحزب الوطنى ومطاردة رجاله ، فضبطت أوراقه ودفاتره وسجلاته . . وشتت شمل أعضائه أو الذين اشتبهت فى أنهم من أعضائه أو أنصاره . ، واعتقلت الكثيرين منهم . ووزعتهم على سجن الاستئناف بالقاهرة ، وسجن الحدره بالإسكندرية ، والمعتقلات التى أنشأتها لهم خصيصا فى درب الجماميز وطرة والجيزة وسيدى بشر ، ونفت بعضهم إلى مالطة وأوربا ، وكنت ممن أصابهم الاعتقال ، وأذكر من أسماء المعتقلين وقتئذ :

أحمد لطفى بك - على فهمى كامل بك - عبد الله بك طلعت - عبد اللطيف بك الصوفانى وقد وضع تحت المراقبة فى دمنهور - عبد اللطيف بك المكباتى .

الأساتذة : عبد المقصود متولى - محمد زكى على أحمد توفيق - أمين الرافعى - عبد الرحمن الرافعى - مصطفى الشوربجى - إسماعيل حافظ صهر محمد بك فريد - محمد

قزاد حمدى - إبراهيم رياض - الدكتور عبد الحلیم متولى - الدكتور عبد الفتاح يوسف -
 الدكتور شفيق منصور - أحمد أفندى رمضان - اليوزباشى - حافظ محمود قبودان -
 اليوزباشى أحمد حمودة - محمد أفندى الشافعى - مصطفى أفندى حمدى - يعقوب أفندى
 صبرى - اليوزباشى أحمد نبيه قبودان - إسماعيل أفندى حسين - الشيخ إبراهيم مروفى . .
 وغيرهم .

أما الذين نفوا إلى مالطة فمنهم :

الدكتور عبد الغفار متولى - الدكتور محمد عوض محمد - الأستاذ محمود إبراهيم
 الدسوقى - حامد بك العلابلى - الأمير أفندى العطار . . وغيرهم .
 وقد نقلت لك بعض هذه الأسماء لتدرك معى أن الصفوة المثقفة المصرية من محامين
 وأطباء وضباط وكتاب وصحفيين هى التى كانت تقود حركة الثورة المصرية ، ولم تكن طبقة
 الأعيان هى التى تقودها ، ولكنها كانت تشترك فيها ، فإن غالبية الذين اعتقلتهم السلطة
 البريطانية بعد إعلان الحماية وقبل اشتعال ثورة ١٩١٩ ، كانوا من المثقفين كما ترى . . بل إن
 الاحتجاج الأول على الحماية كان من صحفى مثقف هو أمين بك الرافعى .

وقد لبث كثيرون من هؤلاء المعتقلين فى السجون والمعتقلات والمنفى سنوات طويلة ، حتى
 بعد إعلان الهدنة سنة ١٩١٨ ، ؛ لأن بريطانيا لم تعتقلهم بسبب الحرب ولكن بسبب وقوفهم
 فى وجه الاستعمار .

اعتقل أمين الرافعى يوم ١٧ أغسطس ١٩١٥ ، وحبس فى سجن الاستئناف بباب الخلق
 مع كثيرين من الوطنيين ، وكان هذا السجن مجاورا لمحافظة القاهرة فى مبناها القديم ، وهى
 مديرية أمن القاهرة الآن ، وإلى جواره محكمة الاستئناف ؛ ولذلك سمي (سجن الاستئناف)
 وقد أعد لاستقبال الذين توجه إليهم تمهم تودى بهم إلى المحكمة .

ولكن أمين الرافعى ورفاقه لم توجه إليهم تهمة ؛ لأن الحركة الوطنية خلال تلك الفترة
 الحرجة من تاريخ مصر التزمت الصمت الذى كان يسبق العاصفة ، حتى أن الشعب المصرى
 تعاطف مع الخديوى عباس حلمى لا حبا فيه ، ولكن بغضا للاستعمار البريطانى ، وظهر ذلك
 فى الفولكلور الشعبى ، فذاع فى تلك الأيام الإنشاد الوطنى على ألسنة الأطفال ، وهم
 يقولون :

الله حي عباس جاى

يضرب بمبه

فى راس العمدة

الله حي عباس جاى

والمقصود بالعمدة هنا هو المعتمد البريطانى وانتشرت أيضاً مقطوعة شعبية أخرى تقول :

ياعزيز ياعزيز . .

كبة تاخذ الانجليز .

وعندما كانت السلطة البريطانية تجمع عشرات الألوف من الفلاحين لخدمة الجيش البريطانى فى ميادين القتال فى فلسطين ، انتشرت أيضاً الأغنية الفلكلورية الشهيرة .

ياعزيز عيى وانا بدى أروح بلدى

بلدى يابلدى والسلطة خدت ولدى

بلدى . . يابلدى .

خلال الصمت الرهيب الذى عبر عنه الشعب المصرى بأغانيه الجريئة ، كان أمين الرافعى ورفاقه فى زنزانات سجن الاستئناف بباب الخلق .

وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٥ اتخذت السلطة قراراً بالنسبة لهؤلاء المسجونين السياسيين خوفاً من إثارة الرأى العام الذى بدأ يعبر عن سخطه بهذه الكلمات الشعبية البسيطة التى رويتها لك . يقول عبد الرحمن الرافعى :

(فى ١٠ أغسطس جاء الفرج ، لا بإطلاق سراحه ، بل بنفيه إلى معتقل أعدوه لنا بدرج الجماميز ، فى مبنى مخزن وزارة المعارف ؛ ذلك أن اعتقالنا فى سجن أعد للمحكوم عليهم والمتنظر أن يحكم عليهم فى الجرائم ، قد قوبل فى مختلف الطبقات وبالسخط والاستنكار ، وأبدت رغبة فى معاملتنا كمعتقلين سياسيين لهم على كل حال حق الرعاية والمعاملة الإنسانية . فأعدوا لنا المعتقل الجديد بدرج الجماميز ، وقد شعرنا فيه ببعض الراحة النفسية إذا قورن بسجن الاستئناف وسمح لنا فيه على الأقل بأن نجتمع معا فى أى وقت نشاء ، وأن نختار من الغرف الصغيرة والمتوسطة والكبيرة ما نشاء ، وأن نختار كل منا زملاءه ، فاخترت مع أخى أمين غرفة واحدة كان بابها مفتوحاً فى كل وقت) .

ولكن أمين الرافعى لم يظل مقامه بمعتقل درب الجماميز ، فقد حدث حادث خطير فى مصر

هز أركان العرش ، عندما قرر السلطان حسين كامل زيارة مدرسة الحقوق وهي أعلى المدارس العليا شأنًا في ذلك الزمان ، وفي يوم الزيارة المحدد تحرك موكب السلطان من قصر عابدين إلى المدرسة التي كانت في مبنى الحرس الملكي بميدان عابدين في مواجهة القصر ، وعندما وصل الموكب خرج كل الطلبة من المدرسة في صمت ، وانصرفوا ، ووجد السلطان نفسه وسط غرف خالية .

كانت هذه اللطمة من طلبة الحقوق أقسى اللطامات على وجه السلطان الذي عينته بريطانيا العظمى بقرار منها سلطانا على مصر بعد يوم واحد من إعلان الحماية .

وبعد هذا اليوم بدأت السلطة تبحث عن معتقلات جديدة . ، فنقلت بعضهم إلى معتقل أنشأته في سجن طره ، ووضعت طلبة مدرسة الحقوق في معتقل درب الجواميز ، ونقل أمين الرافعي ومعه شقيقه عبد الرحمن الرافعي وبعض رفاقها إلى معتقل طرة . . ثم نقلوا مرة أخرى إلى معتقل في أول شارع الهرم كان يعرف باسم (السجن الأسود) .

وأخيرًا حدثت المفاجأة الغريبة العجيبة التي نحتاج إلى شرح وتفسير .
في يوم ١٧ يونيو ١٩١٦ أفرج عن أمين الرافعي بعد أن ظل في المعتقل عشرة أشهر .
لم يكن إفراجًا عاديًا يخرج فيه هذا الصحفي الكبير من المعتقل إلى بيته كما جرت العادة . . . وكان الله يحب المحسنين .

لا . . .

لقد أخذه من معتقل السجن الأسود في شارع الهرم إلى الإسكندرية لمقابلة رئيس الوزراء حسين رشدي باشا ، وكان معه شقيقه عبد الرحمن الرافعي وصديق ثالث هو عبد الله بك طلعت .

وقابل حسين رشدي باشا هؤلاء الثلاثة ، وكان هذا الرجل من نخيرة المصريين . وله قصر في الإسكندرية في محطة رشدي باشا التي ما زالت تحمل اسمه ، وكان له دور في ثورة ١٩١٩ يذكر ويشكر ، ولكنه لم يكن من الثوريين أو الذين يفكرون بفكر أصحاب الثورات أو دعائها .

المهم هو أن رشدي باشا وضع موقفه ، وقال إنه سعى لدى السلطة البريطانية للإفراج عن أمين بك الرافعي وشقيقه عبد الرحمن الرافعي وصديقه عبد الله طلعت ، ثم تحدث عن

ضرورات الحرب ، ولعله قال إن بريطانيا العظمى معذورة في موقفها من مصر ، وسيتم الخير بإذن الله بعد إنهاء الحرب .؛

حديث سياسة تكرر في حياتنا الثورية النضالية في الحرب العالمية الثانية . .

كما كان تماما في الحرب العالمية الأولى . . وكان مصطفى النحاس باشا مثل حسين رشدي باشا مع اختلاف الظروف والأحوال ، والاختلاف بين الشخصيتين .

وكان أمين الرافعي يدرك أن لعبة السياسة لا تصلح في مقاومة الاستعمار . . وكان جيلنا الذى عاصر النضال الوطنى بعد ثورة ١٩١٩ . . ونحن أبناء شباب هذه الثورة - يدرك أيضا أن لعبة السياسة لا تستطيع مقاومة الاستعمار .

هذه التجارب كلها هي التي أدت إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بكل قوتها واندفاعها . وهي الثورة التي خلعت عرش الطغاة ، واقتلعت جذور الاستعمار .

دعنى الآن من هذا الحديث حتى أحدثك عن الصحفي أمين الرافعى .

قال له حسين رشدي باشا ما قاله من كلمات عذبة رقيقة ، وشكر الباشا على حسن صنيعة ؛ لأن أمين الرافعى كان رجلا مهذباً ، وحين طلب منه الباشا مقابلة (السير رونالد جراهام) مستشار وزارة الداخلية ، وقال له ولرفاقه إنه هو أيضاً سعى للإفراج عنهم ، لم يتردد أمين بك في زيارة عدوه في مكتبه . ويقول عبد الرحمن الرافعى إنه قابلهم بشعور طيب .

ثم جاءت المفاجأة الكبرى التي قلت لك إنها تحتاج إلى شرح وتفسير .

حدد موعد المقابلة بين أمين الرافعى وبين السلطان حسين كامل سلطان مصر في رأس التين بالإسكندرية ، وحتى لا تنكشف اللعبة الماكرة تمت المقابلة بين السلطان وبين :

• أمين بك الرافعى .

• عبد الله بك طلعت .

• الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

وكتب عبد الرحمن الرافعى عن هذه المقابلة يقول بالحرف الواحد :

(ثم ذهبنا إلى سراى رأس التين حيث قابلنا السلطان حسين كامل ، واستقبلنا بعطف

وحفاوة وأخذ يدافع عن سياسته منذ إعلان الحرب العالمية وقبول عرش السلطنة ، وقال إنه قصد خدمة مصر والأسرة العلوية .

والتفت في ختام الحديث إلى أخى أمين ، وقال له :
 طلع الغازية بأمين بك .
 ووعده بالمساعدة المالية لإصدار الغازية ، وهى جريدة الشعب التى كانت محتجبةً
 احتجاجاً على إعلان الحماية البريطانية .
 ولم يصدر أمين الرافعى جريدة الشعب ، وتحدى السلطان حسين كامل الذى أبدى له
 استعداداه بالمساعدة المالية .
 وكان تحدى السلطان أكبر وأعظم من تحدى بريطانيا العظمى ؛ لأن احتجاب الجريدة
 عمل سلبي صامت ، ولكن رفض إعادة إصدارها بعد طلب سلطان مصر ووارث عرش محمد
 على هو العمل الإيجابي الخطير .
 أمين الرافعى الذى خرج من معتقل السجن الأسود فى شارع الهرم ليقابل سلطان مصر فى
 نفس اليوم رفض إعادة إصدار جريدته الشعب ، وهو يعلم أنهم يستطيعون إعادته إلى معتقل
 أسود من السجن الأسود .
 هذا رجل .
 وليس لى بعد هذه الكلمة أى كلمة أخرى .

الدكتور على إبراهيم

جراح . . هوائيه السجايد القديمة

هذا الرجل يشبه الأسطورة .

ومازال القدماء من أهل حى عابدين فى القاهرة يرددون عنه الحكايات ، فقد كانت عيادته فى الجبل الماضى تقع فى شارع الصنافيرى خلف مبنى الحرس الملكى الذى أصبح اليوم مبنى محافظة القاهرة .

وكلما مررت أمام هذا البيت القديم العتيق الذى كان يعيش فيه الساحر صاحب الأصابع الذهبية ، أحس بأننى أقف أمام معبد لكاهن فرعونى صناعته الطب .
البيت صغير ، ولكن شكله غريب . . بين بابه وبين الشارع سور حديدى ، ونوافذه تطل عليك وكأنها فتحات هذا المعبد الفرعونى الذى تخيلته . . وأنت لا تدرى ماذا وراء هذه النوافذ ؟

وعندما سكن الدكتور على إبراهيم فى هذا البيت ، وجعل منه عيادته ومستشفاه ، كان أشهر طبيب جراح فى مصر هو الدكتور ملتون ، وهو طبيب إنجليزى كانت له مستشفى فى حى عابدين تحمل اسمه ، وكانت هذه المستشفى فى شارع عبد الدايم ، وقد اشتهرت وذاع اسمها عندما نقل إليها بطرس باشا غالى رئيس الوزراء فى عهد الخديوى عباس حلمى ، عندما أطلق عليه الرصاص وحاول الدكتور ملتون إنقاذ حياة الباشا فعجز عن ذلك ، ومات بطرس باشا فى مستشفى الدكتور ملتون .

فى تلك الأيام فقد الطبيب الإنجليزى شهرته لا بسبب عجزه عن إنقاذ حياة بطرس باشا غالى ، ولكن بسبب وجود الدكتور على إبراهيم فى حى عابدين .

كان الدكتور على إبراهيم يقاوم النفوذ الاستعمارى البريطانى بالطب ، وهذه هى إحدى عجائبه التى تروى للأجيال ، وهذا هو السبب فى نسج الأساطير حول عبقريته الفائقة ، ونحن لا ندرى ماذا كان يصنع . . ولكننا كنا نسمع ؟

قال الرواة إنه بعد عزل الخديوى عباس حلمى من عرش محمد على ، وتولية السلطان

حسين كامل بأمر ملكي بريطاني . . أصيب السلطان حسين بمرض عضال ، واستدعى لعلاجيه كل الأطباء الأجانب في القاهرة ومنهم الدكتور ملتون الشهير ، فعجزوا عن علاجه ، وزادت الأزمة ، وقال له واحد من حاشيته إن طبيبا مصريا اسمه الدكتور على إبراهيم له عيادة في شارع الصنافيري ، ولا بأس من دعوته ، لعل الله يجعل الشفاء على يديه ، وفي غمرة الآلام الفظيعة وافق السلطان حسين كامل المستبد المتعجرف الذي كان لا يترك السوط من يده على دعوة الدكتور على إبراهيم . . الطبيب المصرى المسكين . . الذى لا يستطيع مطاولة الأطباء الأجانب .

ثم أجرى عبقرى الطب والجراحة عملية للسلطان وشفى السلطان ، وزالت الأزمة وقال السلطان للدكتور على إبراهيم .

- كم تريد أجرا على العملية التى أجريتها لى ؟

فقال الدكتور !

- ألف جنيه ذهباً .

وأنت اليوم لا تتخيل معنى الألف جنيه الذهبية في سنة ١٩١٤ أو ١٩١٥ .

عملية جراحية لطبيب مصرى ناشئ بألف جنيه من الذهب .

هذه إحدى أساطير الدكتور على باشا إبراهيم الذى تحدى كل الأطباء الأجانب في القاهرة . . . ولم تكن المشكلة أن يحصل الدكتور على المال ، ولكنها كانت مشكلة أخرى ، فقد ظل الناس يتحدثون عن هذا الطبيب الذى يأخذ ألف جنيه ذهبية في العملية الجراحية . كل الأطباء الأجانب عجزوا عن علاج سلطان مصر ، وعالجه الطبيب المصرى الدكتور على إبراهيم . . وأخذ ألف جنيه . . كلها من الذهب .

ثم سقطت الهالة الكاذبة عن الأطباء الأجانب ، وظهرت أسطورة الطبيب المصرى العبقري الدكتور على إبراهيم ، وانصرف الناس عن مستشفى (ملتون) الإنجليزى ، واتجهوا إلى عيادة (على إبراهيم) المصرى . . في شارع الصنافيري .

وبدأ الشعب ينسج الأساطير . .

قال لى رجل من عامة الناس فى حيننا ، وهو حى عابدين ، إن أحد الفقراء كانت له ابنة مريضة حار فيها الأطباء ، فنصح به بعض أصدقائه أن يذهب بها إلى عيادة الدكتور على إبراهيم فى شارع الصنافيري ليجرى لها عملية جراحية .

ولكن .. كيف؟

هذا الطبيب أخذ ألف جنيه ذهبية من السلطان .

هل يعالج هذه البنت الفقيرة؟ .. هل يجرى لها عمليةً جراحية تشفى بعدها كما شفى

السلطان!

ولكن الرجل استخار الله ، وجمع خمسة جنيهات وضعها في مظروف ، وذهب إلى

العيادة ، وأجرى الدكتور على إبراهيم الكشف الطبي على البنت ، وقال لأبيها؟

- احضرها لي غدًا في الساعة السابعة صباحًا لأجرى لها عملية تشفى بعدها بإذن الله .

وقدم الرجل المظروف وبه الجنيهات الخمسة إلى الدكتور ، فأخذه منه ، وأكد عليه

بإحضار البنت في الساعة السابعة صباحًا لإجراء العملية .

وتمت العملية ، وبقيت البنت في المستشفى حتى شفيت ، وعندما صرح لها الدكتور على

إبراهيم بالخروج ، أعاد المظروف إلى والدها ، وكان فيه خمسون جنيهًا فوق الخمسة ، وقال

للأب!

- ابتك في حاجة إلى رعاية وغذاء فلا تبخل عليها .

وظل الرجل يحكى هذه الحكاية في الشوارع والحارات ، وظل الناس يرددونها حتى

سمعتها منهم .

وهناك حكايات أخرى كثيرة يروها الرواة عن هذا العبقري المصري الذى طبقت شهرته

الآفاق ، ورويت عنه الأعاجيب . حتى أن الطائفة الإسرائيلية في مصر عندما أقامت المستشفى

الإسرائيلي في القاهرة ، جعلت قسم الجراحة فيه باسم (الدكتور على إبراهيم باشا)

إن القصص التى نسجت حول اسم على إبراهيم كثيرة ، فقد كان الطبيب الذى يأخذ من

الأغنياء ليعطى الفقراء .

وكان يعرف القدرات المالية لمرضاه مها كانت مراكزهم ، فيعاملهم بالحسنى وزيادة .

أجرى جراحة لواحد من القضاة ، ثم جاء وقت المحاسبة ، فسأل على باشا إبراهيم هذا

القاضى؟

- كم راتبك في الشهر؟

فأخبره القاضى عن راتبه الشهرى ، ولم يلبث الدكتور العظيم أن قال له :

- سأخذ منك مرتب شهر هو كل مصاريف علاجك .

وكان هذا المرتب أربعين جنيها لا تكاد تكفى ثمن الدواء ، ولا أجر الإقامة في المستشفى ، ولا أجر العملية الجراحية التي أجراها أكبر جراح في مصر .

لقد أراد الدكتور على إبراهيم أن يشعر هذا القاضي براحة الضمير ، ويجعله هادئ النفس ، معتقداً أنه دفع أجر علاجه ، ولو لا الحياء من الباشا لامتنع عن أخذ شيء من هذا القاضي .

وعندما دوت شهرة الدكتور على باشا إبراهيم في العالمين ، وأصبح عميدا لكلية الطب ، ثم مديرا للجامعة القاهرة ، لم يأخذه الغرور .
كان في عصره واحداً من أشهر الجراحين في العالم .
وكان في عصره واحداً من أعظم الفنانين .

سمعتنا أنه كان من عشاق الغناء والطرب ، ولكن المجتمع المغلق حرمانا من معرفة هواياته في الغناء لأن بعض الفنون في ذلك العصر كانت تعتبر من النقائص التي لا يجوز أن يقترب منها العظماء ، وكأنها إثم من الآثام .

لقد نال حسين باشا رشدي رئيس وزراء مصر أشنع التشنيع بسبب حبه لصوت (منيرة المهديّة) ، وغرامه بغنائها ، ولم يفهم المجتمع المغلق معنى الفن الذي عشقه رئيس الوزراء . وكان الدكتور على باشا إبراهيم يعرف هذه الحقيقة ؛ ولذلك لم يجاهر باسم صاحبة الصوت الذي كان يهواه ، ورغم ذلك لاحقته الشائعات ، ونسجت حوله الحكايات .

هذا نادرة من نوادر الزمان الذي أنكر أصحابه على عظيم مثل الدكتور على باشا إبراهيم حب الغناء والطرب ، إن الجراح الفنان صاحب الأصابع الذهبية ، كان فيما أعتقد يعث الحياة - وسبحان خالق الحياة - بالإلهام الذي يحرك أصابعه أثناء عملياته الجراحية ، وكأنه يعزف للحب والحياة على أوتار آلة موسيقية تحركها يد لا تراها .

وهذا العازف بالمشروط ومبضع الجراح ، ومن حقه أن يستمتع بعزف القانون والعود والناي .

نادرة . . من نوادر الزمان هذا الرجل .

ولكن الهواية الكبرى لهذا الجراح الفنان كانت التحف الإسلامية ، والسجاجيد القديمة .
اشتهر الدكتور على باشا إبراهيم بأنه من أعظم هواة السجاجيد القديمة ، وقد جمع منها مجموعة نادرة ، أعتقد أنها الآن أصبحت في متحف الآثار الإسلامية . . وليس هذا هو المهم

على كل حال . . أين مجموعته من السجاجيد القديمة ؟ وإلى أين ذهبت ؟ . . ولكن الأهم أنه كان هاويا لهذا الفن العظيم .

لقد التقيت منذ سنوات بالمرض الذى كان يعمل معه ، وحدثنى عن الدكتور على باشا إبراهيم وهو ابنته فى جمع التحف والسجاجيد القديمة ، فصادف ذلك هوى فى نفسى . وكان هذا المرض قد أقام إلى جوارى فى المعادى وبني له بيتا ، من فضل خير الباشا ، ولم يدرك بالطبع معنى الفن فى حياة الدكتور على باشا إبراهيم ، فهذا الأمر يصعب إدراكه على مثل هذا المرض ، فقد قال لى مرة ! .

— كان الباشا يحضر لنا زلعة ويقول إنها من الآثار الإسلامية . . ثم يحضر سجادة مهلهلة ويقول إنها عظيمة . . وكنا نتعجب من تصرفاته ، وإنفاقه للأموال الطائلة فى شراء هذه الأشياء .

لست أدرى لم بدأت معك الحديث عن الفنان قبل الحديث عن الإنسان ؟ يبدو أن عم محمد التورجى . . المرض الذى لازم الدكتور على باشا إبراهيم ، كان هو الذى يترصدنى فى الخفاء . ويدفعنى للكتابة عن الدكتور على إبراهيم الفنان . ما علينا . .

إن هذا العبقري الأسطورة له حكاية مع أمه عندما كان عميدا لكلية طب قصر العيني أشهر كلية طب فى الشرق كله .

جاءت الأم بشبابها الريفية لتزور ولدها فى قصر العيني ، ووصلت إلى أبواب مكتب العميد فنعتها الحاجب من الاقتراب من الباب ، ودارت مناقشة بين أم الدكتور على باشا إبراهيم وبين حاجب مكتبه ، وكان مجلس الكلية منعقداً ، وأرهف الباشا أذنيه وهو يسمع الصوت من وراء الباب الموصل . . واستمر يرهف أذنيه ليتأكد من سماع هذا الصوت الحبيب إلى نفسه . إنه صوت أمه .

تم هب واقفا واتجه نحو الباب وفتحه ليجد أمه واقفة أمامه وهى تأخذه بين أحضانها ، وبعد العناق الحار أخذها من يدها وقدمها لزملائه أعضاء مجلس كلية قصر العيني .

هذا الإنسان المصرى العظيم الذى وضع الأطباء الأجانب فى الركن المظلم ، عندما امتدت أنامله الذهبية بعشرته الساحر لتجرى عملية ناجحة لسلطان مصر فى زمانه السلطان حسين كامل . . كانت له حكاية أخرى مع الملك فؤاد ملك مصر .

ونحن حين نرى مباني قصر العيني الجديد يجب أن نتذكر أن الذى أقام هذا المستشفى الضخم هو الدكتور على باشا إبراهيم . ولو أنصفنا الرجل لأقننا له تمثالاً وسط هذه الأجنحة الممتدة التي مرت فوقها لمسات يده الحانية ذات الأنامل الذهبية الساحرة .

الدكتور على باشا إبراهيم عندما أراد بناء قصر العيني الجديد ، استطاع إقامة البناء . هذا النحيل الأسمر ، الأنيق في ثيابه ، الوثيد في خطوته ، براق العينين في نظرتة ، هادئ اللمحات في قسما ت وجهه وملامح سحته .

كنت كلما رأيته تخيلت أنه عابد خارج من صومعة ، فقد منحه الله من هدوء النفس والحس مالا يمنحه إلا لعباده الأتقياء .

يا ويح نفسى . . كم رأيت عباداً أشقياء ، يركعون ويسجدون . ولا يمنحهم الله النقاء بل يرتسم على وجوههم الشقاء .

كان هذا الرجل تقياً صفياء ، منحه الله هذا السر الذى حمله ابن سينا وابن طفيل وابن رشد وكلهم أطباء وهم فلاسفة الإسلام ، ثم مضى الدكتور على باشا إبراهيم في حياتنا المعاصرة فلم نلقه عند حياته كما يبنى الوقوف لأننا مازلنا نحتفل بحياة راقصة أو مطرب أو ممثل أو ملحن .

ونحن لا نرفض الاحتفال بأصحاب الفن من هؤلاء . .

ولكننا نرفض أن نجعل لهم القيادة الفكرية في المجتمع ؛ لأنهم مها بلغ شأنهم ، وعلا قدرهم ، ليسوا إلا أدوات الترفيه عن حياتنا ، ولم تكن لهم ، ولن تكون لهم قيادة الفكر ، حتى لو أصبح المسرح أو الغناء أو الرقص بل كل الفنون في الدنيا لها فلسفات ، أو لها تعبير عن فلسفات .

إن قيادة الفكر عند أصحاب الفكر .

كان المعلم الثانى في العالم بعد أرسطو هو الفيلسوف المسلم « أبو نصر الفارابى » وكان موسيقياً يستطيع بعزفه أن ينيم الناس ويوقظهم ويضحكهم ويبكيهم ، ولكن الذى بقى له في رحلة حياته هو كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) الذى وضع فيه صورة المجتمع الإسلامى المثالى ، وقلده في ذلك فلاسفة أوروبا عندما كتبوا عن هذه (المدن الفاضلة) أو (يوتوبيا) وأشهرهم (السير توماس مور) الإنجليزى الشهير .

لقد حرك الدكتور على باشا إبراهيم الشجون في نفسى ، وليس هذا بسبب أن الرجل لم ينل

حقه من المعرفة والتعريف في حياتنا المعاصرة ، فهذه كأس دائرة على أمثاله من العظماء كما يقول المثل الشعبي المصرى ، ولكن السبب الحقيقي هو أن حكايته في بناء قصر العيني الجديد كانت أسطورة . وقد قلت لك إن الرجل كان أسطورة .
ولكن . . .

إن كل ما كتبه لك عن الفنون والعلوم والإنسانية في حياة علي إبراهيم ليس إلا تفسيراً ضئيلاً للملامح هذه الشخصية الفريدة القادرة النادرة .

مبضع الجراح . . . وحب الطرب والغناء . . . وهواية التحف والسجاجيد القديمة . . . وما ظهر من حياة الرجل . . . وما خفى من حياته .

كل هذا يؤدي إلى فلسفته الإنسانية الرفيعة ، وأحاسيسه ومشاعره الرقيقة التي جعلته يفكر في بناء قصر العيني الجديد عندما أحس بأن قصر العيني القديم لم يعد صالحاً للبقاء والحياة . كان ذلك منذ نصف قرن من الزمان . . . في سنة ١٩٣٠ .

خلال تلك الفترة أقام الأمير محمد علي توفيق قصر المنيل على الطراز الأندلسي ، وهو القصر الشهير الذي نراه ، وقد أصبح متحفاً .

كان الأمير محمد علي توفيق وهو ابن الخديوي توفيق أكبر أفراد أسرة محمد علي ، وكان طامعاً في العرش ، مما أثار عهه الملك فؤاد الذي كان يحشى على وليّ عهده الأمير فاروق من الأمير محمد علي توفيق .

وقرر الملك فؤاد إقامة قصر لوليّ عهده فاروق في مواجهة قصر محمد علي توفيق في المنيل . وكان الدكتور علي إبراهيم باشا عميد كلية طب قصر العيني ينظر إلى هذه الأرض الشاسعة من نوافذ غرف المرضى في قصر العيني القديم .

كان يعلم بإقامة مستشفى جديد فوق هذه الأرض التي قرر الملك فؤاد إقامة قصر وليّ عهده عليها .

ولكن . . . كيف ؟

وعند كان الدكتور يتحدث مع زملائه عن أحلامه في إقامة المستشفى الجديد فوق هذه الأرض المخصصة لإقامة قصر وليّ العهد ، كانوا يظنون أنه يسبح في خيالات لن تتحقق . ثم جاءت اللحظة التي حققت أحلام الدكتور علي إبراهيم ، فقد مرض الملك فؤاد ، واستدعى الدكتور لعلاج ، وشفى الملك ، وكانت الأحاديث لا تنقطع بينه وبين الدكتور علي

إبراهيم الذى استطاع بلباقته ودكائه إقناع الملك بالتنازل عن الأرض التى خصصها لبناء قصر ولى العهد . . لقصر العينى .

لقد عجب الناس عندما أعلن القصر الملكى تنازله عن أرض كانت مخصصة لبناء قصر ملكى لقصر العينى .

ولم يقل الدكتور على إبراهيم شيئاً ، بعد أن كسب الجولة الأولى ، وأصبحت الأرض فى يده ، وبقيت جولة أخرى أصعب وأشد ، فقد كان محتاجاً لمليون جنيه لبناء المستشفى . فى تلك الأيام خلال سنة ١٩٣٠ وما بعدها ، كانت الأزمة المالية الطاحنة قد جعلت حكومة إسماعيل صدقى باشا تضيق تضييقاً شديداً فى مصروفات الحكومة ، ولم يكن فى إمكانها الموافقة على تخصيص مليون جنيه لبناء مستشفى قصر العينى الجديد .

وإلى جانب الأزمة الاقتصادية الخائفة ، كان الصراع السياسى فى عهد وزارة إسماعيل صدقى شديداً عنيفاً ، فقد تصدى له الحزبان الكبيران فى ذلك الوقت وهما حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين ، ولم يكن يمر يوم واحد بغير وقوع حوادث واضطرابات . لم تكن الظروف مواتية حتى لتقديم طلب إلى الحكومة لبناء مستشفى قصر العينى الجديد . ولكن الدكتور على إبراهيم صاحب العينين النفاذتين والملاحم الصامته ، كان يبنى نفسه بالحصول على المليون جنيه من إسماعيل صدقى .

ألم أقل لك إن هذا الجراح هاوى السجاجيد القديمة كان أسطورة ؟
مرض إسماعيل صدقى ورقد فى فراشه بين اليأس والأمل ، ودخل الدكتور على باشا إبراهيم غرفة رئيس الوزراء المريض ، وعالجه ، وطمأنه حتى شفاه الله .

وقال إسماعيل صدقى :

- كم أجر الكشف فى المنزل يا باشا ؟

وقال الدكتور على باشا إبراهيم :

- مليون جنيه . .

وظن إسماعيل صدقى أن الدكتور يمزح . . ولكن على باشا إبراهيم استرسل فى شرح موضوع المليون جنيه ، وظل إسماعيل صدقى يستمع للشرح .

مليون جنيه تستطيع أن تشفى بها مليون مريض .

وكان إسماعيل صدقى فى فترة النقاهة ، وقد عاد إلى الحياة بعد أن رأى الموت بعينه . . .

تمامًا كما حدث للملك قواد . الذى تنازل عن أرض قصر ولى العهد لقصر العيني .
 ثم قال لإسماعيل صدق .
 أعدك ياباشا بأن أدبر لك المليون جنيه عندما أعود إلى مكنتي في رئاسة مجلس الوزراء .
 وقال الدكتور على باشا إبراهيم .
 - وعد الحزب دِينٌ عليه يادولة الباشا .
 وحصل الدكتور على إبراهيم على المليون جنيه ، وأقام هذا البناء العظيم . . . قصر العيني
 الجديد .

بقى شيء واحد لا بد أن أحدثك عنه .
 قصيدة شوقى التى قالها في هذا الجراح العبقري . . إنها إحدى روائع شوقى الذى يقول لنا
 عن الدكتور على إبراهيم . .

نال عرش الطب من أمحوتب وتلقى من يديه الصولجانا
 خاشعا لله ، لم يزه ، ولم يرهق النفس اغتراراً وافتنانا
 لو يرى الله بمصباح لما كان إلا العلم ، جل الله شاننا
 ياطرأزا يبعث الله به في نواحي ملكه آناً . . فآنا

هذا هو الدكتور على باشا إبراهيم الذى أرى صورته في غدواتي وروحاني ، وأنا أرى قصر
 العيني القديم يعاد بناؤه من جديد .

هذا الجراح العبقري هاوى السجاجيد القديمة قبس من روح مصر . .
 كان مثل (أمحوتب) الطبيب المصرى القديم كما قال عنه أمير الشعراء . .
 تلقى صولجان الطب من يدى أمحوتب . . ثم سلم الصولجان لأولئك الذين يعيدون البناء
 من جديد . .

الشيخ . . . أمين الحفوي

لكرة ممتدة من بغداد إلى الرباط

في التاسع من مارس ١٩٦٦ انطلق السراج الذي أضاء الطريق لكوكبة من المفكرين والكتاب والشعراء . . وأغمض الشيخ عينه اللتين لم تغمضا أبداً على ذل أو هوان ، ولم تغمضا أبداً عن كشف الأخطاء ورؤية الحق والصواب .

كان عذباً في حديثه وصحبته .

كان عنيفاً في جراته . . رقيقاً .

صحبته ثلاثين عاماً صحبة الابن الصديق كما كان يحلو له أن يلقبني وعرفته في السراء والضراء - كما يقولون - فأرأيت فيه اختلافاً فهو قوة دائمة ، وشعلة متوهجة ، وإقدام لا يتردد .

بدأ وانتهى قوى الفتوة ، شديد العزم ، واثق الفكر ، واضح الطريق فلم تنه قواه طوال السنين ، ولم تدركه الشيخوخة حتى أغمض عينيه ، فكان شاباً دائماً ، وهذا سر يهبه الله لعباده القادرين الذين اصطفاهم للأعمال العظيمة في حياة البشر .

وكان آخر كتاب ألفه الشيخ هو أول جزء من كتاب (المجددون في الإسلام) . .

وكانه أحس بما سيجري في دار الإسلام عند نهايات القرن الرابع عشر من تاريخ الهجرة ،

وقبل أن يطل علينا القرن الخامس عشر الهجري .

واليوم أريد أن أحدثك عنه وهو ثاوٍ في مرقده في شوشاي إحدى قرى المنوفية أخصب

أرض في مصر .

هناك ولد في اليوم الأول من مايو ١٨٩٥ . . وهناك ثوى في اليوم التاسع من مارس

. ١٩٦٦ .

رحلة طولها إحدى وسبعين سنةً في حياة الإنسان . . وقد تطول هذه الرحلات الترابية أو

تقصر ، وكل رحلة لها بداية ونهاية . وتبقى بعد ذلك قيمة الرحلة . .

وكانت رحلته عظيمةً في حب الحياة .

قال الدكتور شكرى عياد ونحن نودع الشيخ الوداع الأخير :

- اليوم .. مات أبى .

وأحس الأبناء جميعًا بأنهم يتامى ، وهم الذين ظللت أفكارهم وآدابهم عالم الفكر فى مصر وخارج مصر .

علمهم الشيخ حب الحياة .

شعراء وكتاب وأدباء وأساتذة جامعات أصبحوا يتامى فى اللحظة التى هجع فيها الشيخ الناثر الذى لم يعرف الهدوء إلى مرقده فى التراب .

ماذا كان يصنع أمين الخولى ؟ .

أقول لك فى البداية إن تلاميذه تعارفوا فيما بينهم على أن يعرفوه بلقب (الشيخ) . . فإذا قبل (الشيخ) فهو أستاذهم أمين الخولى ، وهذا اللقب له معنى حضارة الإسلام ، فهناك الشيخ الرئيس ابن سينا ، وعندنا الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، والشيخ الأكبر الثانى جمال الدين الأفغانى . وتلميذه الأستاذ الإمام . . الشيخ محمد عبده .

وظل أمين الخولى محتفظًا لنفسه بـ (بـزى) الشيخ ولقب الشيخ على غير ما تعارف عليه معظم أبناء جيله الذين خلعوا الزى ، وأحبوا لقب (الدكتور) . . وكان هو الذى يمنح درجات الدكتوراه ، ولا يحمل لقب (دكتور) .

حكاية تستحق أن تذكر . . ولكنى أحدثك عن الشيخ .

حفظ أمين الخولى القرآن الكريم فى قرينته (شوشاى) ، وجاء إلى القاهرة طلبًا للعلم ، وأقام فى بيت خاله الشيخ على عامر الذى أراد توجيهه للدراسة فى الأزهر الشريف ؟ ولكنه أصر على دخول مدرسة ماهر على مقرية من حى القلعة ، وكانت مدرسة دينية إسلامية تعلم تلاميذها بأسلوب عصرى حديث يجمع بين ثقافة الأزهر والعلوم الحديثة ، وهى من أعجب المدارس التى شاهدها فى حياتى .

ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعى حيث أتم دراسته فى قسمها الابتدائى والعالى ، وتخرج فيها بتفوق حتى عين مدرسًا فيها سنة ١٩٢٠ . كما أسندت إليه رياسة تحرير مجلة (القضاء الشرعى) التى كانت تصدر عن هذه المدرسة .

وخلال هذه الفترة الباكورة من حياته اشترك فى ثورة ١٩١٩ ، وكان من أعضاء لجان

الطلبة التي كانت تقوم بتنظيم الأعمال الثورية ، فألف نشيدًا من أناشيد هذه الثورة تقول
كلماته :

اضربونا بالمدافع ما لأمر الله دافع
اضربونا بالرصاص فالحياة في القصاص

وكانت للشيخ صداقات مع رجال الثورة ، ومنهم محمود فهمي النقراشي الذي كان شيخنا
دائم الود له ، وكان يزوره كثيرًا في مكتبه عندما أصبح رئيس وزراء مصر ، وكان النقراشي
يدعوه لزيارته ، ويحدد له موعدًا ثابتًا وسط مشاغل رئيس الوزراء الكثيرة ، ويمضي معه في
الحديث الطويل الذي يمتد أحيانًا إلى ساعتين .

ومن المفارقات العجيبة أن النقراشي كان يدعو عباس محمود العقاد أيضًا لمثل هذا اللقاء .
ولم أر أحدًا من كبار الأساتذة يخفى به في مكتب رئيس الوزراء مثل الخولى والعقاد . . . وكنت
في تلك الفترة موظفًا في رئاسة مجلس الوزراء .

حدث مرة أن تأخر النقراشي عن لقاء الشيخ عشر دقائق بسبب موعد سابق طال أكثر من
مدته وكان شيخنا يجلس معي ، فلم يلبث أن نظر في ساعته ، ثم هب واقفًا ، ومسبحة في
يده ، وقال غاضبًا :

- لقد هنا هنا .

ومضى مسرعًا نحو الباب . . وانطلق إلى سيارته .

ثم جاء الحاجب يسأل :

- أين مولانا الشيخ؟ الباشا يسأل عنه .

وقلت للحاجب :

- مولانا خرج لأن موعد المقابلة تأخر .

وكان يومًا عصيبًا ، فقد لامني المرحوم الأستاذ حافظ جلال مدير مكتب النقراشي باشا
على ترك الشيخ يخرج ، وقال إن الباشا في غاية الألم والضيق ؛ لأنه أعد نفسه للحوار مع
الشيخ ، وطلب مني أن أتصل بشيخي وأعتذر له وأطلب منه أن يحدد هو موعد الزيارة ، وأنها
ستم حتمًا لو كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء .

ونقلت للشيخ الرسالة ، فضحك ضحكته المجلجلة ، ولمع وميض كالمبرق في عينيه ،

وقال :

- لست طالب منفعة . . أنا أنفع بما أعلم .

ففي تلك الأيام كنت أكتب في جريدة (البلاغ) وهي جريدة وفدية ، وكان السعديون قد أضدروا جريدة (الأساس) معارضة لحزب الوفد ، ورأى الأستاذ عبد الرحمن الجدبلي مدير الشؤون الدينية في رئاسة مجلس الوزراء منعى من الكتابة في (البلاغ) لأنني موظف في رئاسة مجلس الوزراء ، وفي مركز حساس ويشتم مني أنني أعارض حكومة النقراشي وأنا في مكتبه ، ولمح لي بالكتابة في جريدة الأساس . . ثم تفجرت الأزمة عندما رفضت ، وقدمت استقالتي .

رويت القصة لشيخى ، فابتسم ولم يقل شيئاً .

ثم قال لي :

- أبنائي دائماً على حق . . لو عرفت أنك على باطل ما قلت لك إنك ابنى الصديق .

وفي اليوم التالى قال لي الأستاذ حافظ جلال وهو يلوح بورقة استقالتي :

- الباشا عاتب عليك بسبب هذه الورقة . . تمزقها أنت أم تسمح لي بأن أمزقها ؟

. . الشيخ الجدبلي مدير الشؤون الدينية ولا شأن له بك ، ولا شأن لك به .

ثم عرفت أن شيخى حكى قصتي للنقراشي باشا .

آه من ذكريات الماضى .

لقد اكتشفت عندما اطلعت على ملف خدمتى في الحكومة اكتشافاً أذهلنى ، فقد عينت

في إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية في نوفمبر ١٩٤٣ . فأرسل أستاذى الدكتور طه حسين

بطاقةً من بطاقاته الشخصية إلى المرحوم حسن فهمى رفعت باشا وكيل الداخلية ويوصيه فيها

بتلميذه . . وعرفت بعد سنين طوال لماذا استدعاني سعادة الباشا إلى مكتبه ، فاشتغلت معه

أكثر من ستة أشهر عدت بعدها إلى العمل في الصحافة والمطبوعات لأننى لم أعجب بالعمل في

مكتب وكيل وزارة الداخلية الذى كان يحكم مصر من وراء ستار .

ما أحلى الذكريات لو تعلمون .

المهم . .

مضى أمين الخولى كالشهاب الثاقب . فأصبح إماماً للمفوضية المصرية في روما ، وإماماً

للسفارة المصرية في برلين ، وتعلم الإيطالية والألمانية ، وكان ذلك بين عامى ١٩٢٣ و

١٩٢٧ ، عندما عاد إلى مصر مدرساً للقضاء الشرعى ، حتى عين مدرساً بكلية الآداب في

جامعة القاهرة في ٣ نوفمبر ١٩٢٨ بعد أن أغلقت مدرسة القضاء الشرعى أبوابها . ولكن . . هناك أهدأنا فكري خطيرة في حياة الشيخ خلال هذه الفترة الأولى من انطلاقه ، فقد أصبح مؤلفا مسرحيا لفرقة أولاد عكاشة ، فألف لها عدداً من المسرحيات من أشهرها مسرحية (الراهب المتنكر) التي عرضت في مسرح الأزيكية وقدمت على خشبة الأوبرا بغير اسم مؤلفها ، فقد اختار الشيخ لنفسه اسم (كاتب متنكر) ، ؛ لأنه لم يكن في استطاعة الشيخ من قضاة الشرع أن يكتب للمسرح ، أو يكتب اسمه في إعلانات مسرحية .

لقد نشرت النص الكامل لهذه المسرحية على صفحات مجلة (الأدب) بعد وفاة شيخى . . وعندما أعدت قراءتها مرة بعد مرة عجبت كيف استطاع إقامة هذا البناء الدرامى في هذه السن الباكرة ، وهو لم يدرس فن المسرح ، ولم تسبق له تجربة في كتابة المسرحية ، بل إنه خلال تجربته المسرحية الرائدة ، لم يكن هناك تأليف مسرحى ؛ بل كانت هناك ترجمة لبعض المسرحيات أو اقتباس وتصوير لمسرحيات أخرى ، وكان (محمد تيمور) أعظم كتاب المسرح شأنًا عندما ألف مسرحية (عبد الستار أفندى) ثم اقتبس مسرحية (الرجل ذو اللحية الزرقاء) وجعلها مسرحية (العشرة الطيبة) التي لحنها سيد درويش .

إن النص المنشور لمسرحية (الراهب المتنكر) التي كتبها الشيخ في العشرينيات يستحق منا الدراسة والتأمل ؛ لأنه نص تاريخى في مراحل تطور المسرح العربى . وهو إحدى الدلالات الفنية الصادقة التي عبر عنها الشيخ خلال فترة التأهيل لمفهوم : الفن والحياة ، وهو شعار جماعة الأبناء التي كونها للتعبير عن الصدق الفنى الذى يستلهم القيم الحقيقية من الواقع ليرفعها إلى مستوى الفن الرفيع .

وهذه النظرة أكدها الشيخ في مفهوم الكلمة والنغمة . . والصورة والتمثال . . وفي كل فن سمعى أو بصرى ، ثم ارتبط بالمصرية في عراقها الفنية ، حتى جعل شعار الأبناء زهرة لوتس . وأقول لك إن شيخى كان شديد الحب للرسم والموسيقى ، وذات يوم تحيل إعادة بناء قرنته شوشاى ، فخطط لها رسماً على شكل دائرة ، في وسطها مسجد ، ومن حول الدائرة المحيطة بالمسجد أبنية المنافع العامة من مدارس ومستشفيات ، ودار قضاء أو دار شرطة أو مركز تموين ، إلى غير ذلك ، وتخرج من مركز الدائرة شوارع القرية وبينها الحوارى . . وكلما اتسع قطر الدائرة يحدث الاتساع والنماء في القرية .

هذا البناء الدائرى للقرية المصرية يحمل معنى النمو المتزايد الذى لا يصطدم بالهندسة المستقيمة الممتدة ، ويحمل أيضاً تركيز الخدمات فى مركز الدائرة ، وهى نظرية فلسفية هندسية فى بناء القرى المصرية على نظام قويم يمتد بلا خلل .

ومن هذا المفهوم الحضارى الممتد فى قطر الدائرة تستطيع إدراك القيمة الفكرية للشيخ فى مفاهيم التجديد والتطور والنماء ، وهى ألفاظ فلسفية عميقة المدلول فى تفكير شيخ الأماناء . وقد عبر عنها فى كراسات صغيرة عند بدايات رحلته الفكرية فى أول محاولات التجديد ، وكان شديد الغموض عند من لا يدركون معنى تحديد اللفظ فى التعبير الفلسفى المقصود من المعنى ، كما كان شديد الوضوح عند أولئك الذين يدركون معنى تحديد اللفظ فى التعبير عن المعنى . والأمر كله واضح ، فقد كان سقراط يقول لتلاميذه :

– حدوا ألفاظكم . . أى كلماتكم المنطوقة التى تعبر عن المعنى المقصود .

وكان الشيخ شديد الحرص على تحديد الألفاظ شديد الدقة فى اختيار كل كلمة تعبر عن فكرة . . وهذا يتنافى أحياناً مع البلاغة وهو أستاذ من أساتذتها الكبار .

عندما يدخل العلم مع الفن يحدث الصدام ؛ لأن العلم له قواعد ونظريات ، والفن له انطلاقات وشطحات .

وكان الشيخ فناناً ، ولكنه كان يحكم على الفن بمقياس العلم ولعله تأثر فى ذلك بالفيلسوف الإيطالى (بنديتو كروتشى) صاحب نظرية الفن الواحد . . حتى أنه أخضع اللوحات الفنية لمقياس الرسم الهندسى ، فرسم عليها خطوطاً بالطول والعرض لمعرفة النسب التى تحدد مكان الجمال فى كل لوحة . . وقد حدثت شىخى عن هذه الأمور لأفهم معنى الفن والحياة ، وكنت قد قرأت كتاب (كروتشى) عن الفن .

وخلال مناقشات طويلة أدركت أن الشيخ يؤمن بنظرية العلم والفن ، وهى نظرية الإيطالى (بنديتو كروتشى) التى تقول بوحدة الفن : كلمة ونغمة وصورة وتمثالاً ، وتدعو إلى تحليل الأعمال الفنية عن طريق العلم .

على سبيل المثال . .

تصدى إبراهيم عبد القادر المازنى لنقد فنى عندما أقام الممثل مختار تمثال نهضة مصر ، وقال المازنى إن الأسد الذى نحتته مختار فيه أخطاء فنية من ناحية جلوسه وامتداد رجله . وتصدى عباس محمود العقاد لنقد أغانى سيد درويش ، وأبدى إعجابه بالألحان الجماعية

التي ألفها الموسيقار ، ورفض الأنغام الفردية التي كانت ولا زالت سائدة في الغناء المصرى . وهكذا كانت نظرية الفن والحياة بدايةً حقيقيةً للنهضة الحديثة ، وقد اتخذ الشيخ هاتين الكلمتين شعاراً للجماعتنا . . جماعة الأمان . . ثم جعل للأمين شعاراً هو : كرم على نفسى ، وهو شعار لا يحتاج إلى شرح أو تعليق ، فن كرمت عليه نفسه ، هانت أمام عينيه كل مذلة تذل أعناق الرجال ، فلا حرص إلا على كرامة النفس .

ثم كان العمل العظيم الذى قام به الشيخ فى حياتنا المعاصرة ولخصه فى فكرته : مناهج التجديد . . وظل طوال حياته يدعو إلى تأصيل هذه المناهج فى دروسه الجامعية ، وأبحاثه ودراساته التى قدمها فى مصر وخارج مصر ، وكأنه موكل بالدفاع عن تحكيم العقل فى إعادة صنع الحياة ، حتى اعتقد بعض الناس أن الشيخ صاحب دعوة عقلانية لا تصل إلى القلب والعاطفة ، مع أنه كان - طيب الله مثواه - من أعظم الناس قلباً حتى يصبح نهرًا رقرقًا ، ونسيمًا لطيفًا يملأ حياتنا بالعطف والود ، ويفتح عيوننا على مباحج الحياة .

كان قاسياً فى قوته ، لطيفاً فى محبته .

عينان نافذتان ، وضحكة مجلجلة ، وبسمة باهرة . . عنيف فى رقة إلا أن تمس طرف ثوبه ، أو تحاول الانتقاص من كرامة نفسه .

وهو صاحب مذهب فى الجدل يشتمل من نور عقل قادر يضىء ولا يحرق ، بصادم ولا يقتل .

عندما حدثت بينه وبين العقاد المعركة الشهيرة على صفحات جريدة الأخبار القاهرية ، كان ظاهرها الصراع بين فكرين ، وكان جوهرها الخلاف حول فن كتابة التراجم ، فقد اتخذ العقاد فكرة مفتاح الشخصية فى كتابة العبقريات الإسلامية الشهيرة ، ورد عليه الشيخ طبقاً لنظرية المنهج التجديدى فى كتاب (مالك بن أنس . . ترجمة محررة) ، وهذا الكتاب يوضح منهج الشيخ فى كتابة تراجم الأشخاص بأسلوب علمى شامل متكامل يبدأ مع الشخصية المدروسة منذ كانت جنينا ، حتى يصل بها إلى مكانها فى الحياة .

منهجان مختلفان بين أمين الخولى وعباس محمود العقاد . . والخلاف بينهما أساسى ، حيث لا لقاء عند نقطة واحدة .

هذه المعركة ليست عداءً بين الخولى والعقاد ، ولكنها خصومة حول رأى . . ونحن نحترم العقاد ولا ننكر قيمته الفكرية العظيمة ، ولكننا نخاصمه فى آرائه بلا حقد أو كراهية ، ومع

أنا ننكر عليه حياته السياسية المتقلبة لكننا نهمل هذه الحياة السياسية وننظر إليه كمفكر رائد وعظيم . . ولم يفهم العقاديون هذه الأفكار حتى اليوم ، ولا زلنا نتعرض لهجومهم بسبب سوء الفهم أو سوء التفاهم .

لا أريد أن أطيل معك الحديث حول هذه القضية .

هناك قضية أهم وأخطر . . وكان للشيخ فيها رأى . . وهى قضية تجديد الإسلام ؟ وكان آخر كتبه هو كتاب (المجددون فى الإسلام) ، وقد لا يعلم كثيرون من المعاصرين أن الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ، سئل عندما عزلوه عن مشيخة الأزهر ومشيخة الإسلام عن الرجل الذى ترشحه شيخاً للإسلام وشيخاً للأزهر ، فقال :

- الشيخ أمين الخولى .

ولم يصل الشيخ إلى مشيخة الأزهر ، وباليته وصل ؛ ليجعل من الأزهر جامعة الإسلام . فقد كان قادراً بمنهجه التجديدى على متابعة أفكار الأستاذ محمد عبده وأستاذه الشيخ الأكبر جمال الدين الأفغانى .

أقول لك فى إيجاز شديد . .

• الشيخ هو صاحب منهج تجديد الدراسة القرآنية على أساس علمى عصرى ، يدرك المفهوم العلمى والمفهوم البيانى فى إعجاز القرآن . . وهو صاحب فكرة الفهم الواعى الدقيق للكلمة القرآنية فى دورانها مع كل آية من آيات الكتاب الكريم .

• الشيخ هو صاحب منهج تجديد البلاغة والنحو ، وكان هدفه فى التجديد هو فهم المعجزة القرآنية فهماً بلاغياً ولغوياً يمهّد للفهم الموضوعى للقرآن فهماً صحيحاً يحقق معنى التحدى القائم الدائم بأن يأتوا بسورة سن مثله تتكون من ثلاث آيات وهى سورة الكوثر ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

• الشيخ هو صاحب فكرة تجديد الإسلام فى العصر الحاضر ، وقد وضع نظريته فى أحاديثه الإذاعية الشهيرة (من هدى القرآن) التى ألقاها من إذاعة القاهرة ، وجمعها فى كتب من أشهرها كتاب (فى أموالهم) الذى وضع النظرية الإسلامية فى بناء الاقتصاد الإسلامى فى العصر الحاضر ، وأسس ومبادئه فى كتاب (المجددون فى الإسلام) الذى أكد نظرية الشيخ فى أن التجديد هو قتل القديم فهماً ودرسا . . فالتجديد الإسلامى المتحصر لا يبد له من عودة إلى السلفية حتى تصل إلى المستقبلية .

لقد خضت معك بحرا زاخرا في سطور قليلة لا تحوى فكر الشيخ إلا بمقدار . . ولكن ماذا أصنع ؟

أنا أكتب هذه الكلمات لأتذكر بعض ملامح هذه الشخصية القادرة الباهرة . . شخصية شيخى الذى عشت معه أكثر من ثلاثين عامًا .

وأنا أعتذر لشيخى لأننى لم أكتب (حياته) . . لا زلت خائفا من كتابة حياته . . كيف

أكتب حياة العاصفة والنسيم . . حياة العقل والقلب . . حياة الجبل الأشم والنهر المتدفق ؟ كيف أكتب حياة أمين الخولى ؟

قلت يوم أغمض عينيه إنه فكر لا يموت .

وأقول يوم أحنى جبينى لذكراه : إنه فكر لا يموت .